مدونة
Riyadh
Hamza

نبيل فرج

الكاتب العراقى شاكر خصباك

يتحدث عن تجربته الأدبية

هذه صفحة مطوية من حياتنا الأدبية فى القاهرة ، نتعرف عليها من بعيد ، بعد ربع قرن ، من خلال حديث الكاتب العراقى شاكر خصباك الذى جذبته العاصمة العربية الى رحابها ، قبل أن يبلغ العشرين ، لكى يتم تعليمه العالى فى جامعة القاهرة .

وأثناء هذه الاقامة التى دامت أربع سنين ، وانتهت بحصوله على ليسانس الآداب سنة ١٩٥١ ، أتيح له أن يعيش الحركة الأدبية فى بلادنا ، ويفيد من مخالطة الأدباء المصريين ، كما تشف عن ذلك كلماته . كما أتيح له أن ينشر فى القاهرة أكثر من مجموعة قصصية ، لا يستطيع ناقد أدبى أن يتجاهل قيمتها ، مثل مجموعة « عهد جديد » التى صدرت عن « لجنة النشر للجامعيين » سنة ١٩٥١ ، و « حياة قاسية » التى نشرتها فيما بعد « دار الكاتب العربى » .

وشاكر خصباك فى العراق ، مثل عادل كامل فى مصر ، مارس التعبير بقدر كبير من الكفاءة ، وقطع فيه شوطا ، ولكنه لم يلبث أن وضع القلم جانبا ، قبل أن يجف مداده ، وعزف عن الكتابة الأدبية ، ربما تحت تأثير اللحظة الدقيقة التى شعر فيها أنها لن ترضى تطلعاته فى الحياة والمستقبل .

على أن التجربة الغنية التى قدمها شاكر خصباك للمكتبة العربية ، فى القصة والرواية والمسرحية ، ليست ملكه وحده ، لكى يسدل عليها

الستار حين يشاء ، بل هى ، دون ريب ، ملك تاريخنا الأدبى المتصل ، وملك الأجيال الأدبية التالية .

بهذا الاعتبار العدل يصبح حديث شاكر خصباك عن الماضى ، أو ازعاجه بالحديث عنه ، ضرورة أدبية وخلقية فى آن واحد ، لامعدى عنها ، نلم فيها ببعض ما يتصل بهذه التجربة من أفكار ووقائع .

عن انعطافه الفنى المبكر نحو الكتابة القصصية ، والمراحل التى اجتازتها تجاربه ، يقول شاكر خصباك :

●● شغفت بالقصة منذ طفولتى ، ولعلنى كنت فى السنة الثالثة الابتدائية حينما بدأت القصة تستأثر باهتمامى ، وكان المسئول عن هذا الانعطاف نحو القصة مجلة مصرية كانت تصدر يومذاك باسم « سمير التلميذ » ، أذكر أنها كانت مجلة ذات مستوى جيد .

ولم يقتصر اهتمامى على قراءة القصة ، بل بدأت أمارس كتابتها منذ « رابعة ابتدائى » . وفى سنة « خامسة ابتدائى » هيأت مجموعة من عدة أقاصيص كانت مثار اعتزازى ، وعرضتها على معلم اللغة العربية الذى بالغ فى اطرائها وتشجيعى على مداومة كتابة القصة .

انتقلت فى السنة الخامسة ابتدائى الى قراءة قصص الأدب العالمى ، فكنت من المدمنين على زيارة المكتبة العامة فى المدينة .

وتعرفت فى المكتبة المذكورة على المجلات الأدبية مثل « الرسالة » و « الرواية » و « الثقافة » المصرية ، ومجلة « الأديب » اللبنانية ، وبدأت أرسل اليها بقصصى ، الا أنها كانت تلقي فى سلة المهملات • ومع ذلك فلم يفت ذلك فى عضدى • ولعبت مجلة « الرواية » المصرية التى كان يصدرها الزيات دورا هاما فى اطلاعى على أدب القصة العالمى •

فى المرحلة الاعدادية تعرفت على كتب الأديب المصرى المرحوم محمود تيمور وشغفت بقصصه حبا ، وانعقدت بينى وبينه صداقة بالمراسلة • واستمرت هذه المراسلة بلا انقطاع حتى تهيأ لى السفر الى مصر ، حيث توطدت بصورة أقوى صلتى بالأديب الراحل • كان يبعث الى بجميع كتبه ، وكانت أولى الدراسات التى نشرتها تدور حول أدب تيمور تحت عنوان « القصة العربية و محمود تيمور » ، وقد نشرت فى احدى المجلات الأدبية العراقية ، وأنا ماأزال فى نهاية مرحلة الدراسة الاعدادية •

بدأت فى هذه المرحلة أيضا نشر دراسات ونقدات عن الأدباء العراقيين على نحو الخصوص ، والعرب عموما ، كانت تستلفت الانتباه • كما بدأت أمارس نقد الكتب القصصية ، وكان طابع كتاباتى هو الطابع التقدمى ، ذلك لأن التيار التقدمى فى مطلع الأربعينات كان يغزو العراق •

كنت تحت تأثير الأسلوب التيمورى فى القصة ، الذى ينحو فى نفس الوقت منحى الأسلوب الموباسانى ، وبعبارة أوضح فان موباسان وتيمور كانا يتقاسمان اعجابى • ولذلك فان تأثير هذين الكاتبين كان واضحا جدا فى مجموعتى القصصية الأولى المسماة « صراع » التى حملتها معى الى مصر ، ونشرتها فى السنة الأولى من دراستى الجامعية عام ١٩٤٨ •

كذلك توسعت دائرة صداقاتى ومراسلاتى فشملت الأستاذ نجيب محفوظ الذى توثقت به صلتى كثيرا ، وكان أدبه يستحوذ على اعجابى ، وكذلك المرحوم عبد الحميد جودة السحار ، والأديب اللبنانى سهيل ادريس والأديب اللبنانى المرحوم رئيف خورى وغيرهم •

ولقد أتاح لى وجودى فى القاهرة أن أنتقل الى مرحلة جديدة فى ذوقى الأدبى ، بفضل عكوفى على تقوية لغتى الانجليزية حتى استطعت أن أقرأ بها القصص الأدبية العالمية ، ونتيجة لاتصالى بجمهرة عظيمة من الأدباء • ولا أبالغ اذا قلت لك أننى كنت على صلة وصداقة مع معظم الأدباء المصريين • ففضلا عن معرفتى ببعض الأدباء مسبقا عن طريق المراسلة ، فقد تعرفت على عدد آخر منهم • وكنت حلقة وصل مع عدة مجموعات • فهناك حلقة نجيب محفوظ التى كانت تشتمل على عدد كبير من الأدباء ، وكان مركز الاجتماع كازينو أوبرا صباح الجمعة ،

وكانت تضم بصورة رئيسية : نجيب محفوظ ، عبد الحميد جودة السحار ، على أحمد باكثير ، محمد عفيفى ، عبد الحليم عبد الله ٠

وهناك حلقة المرحوم أحمد حسن الزيات التى كان يداوم على حضورها توفيق الحكيم وساطع الحصرى ، وأنور المعداوى ، وعدد كبير من الأدباء ، حيث كانت تعقد عصر كل اثنين ٠

وهناك حلقة الأدباء الشباب بزعامة أحمد بهاء الدين ٠ وقد انعقدت صداقة قوية بينى وبين أحمد بهاء الدين ويوسف الشارونى ونعمان عاشور وأحمد عباس صالح ومحمود العالم ٠ وكانت هذه الحلقة تضم عددا كبيرا من الشباب من بينهم فتحى غانم ٠

وكانت هناك حلقات عديدة أخرى لا أتذكرها الآن ، عرفت فيها محمد مفيد الشوباشى ، ووديع فلسطين ، وعلى الراعى ، وعبد القادر القط ، وغيرهم ٠

ومن الواضح أن هذه المعرفة الواسعة للكتاب المصريين كانت ذات أثر كبير فى حياتى الأدبية واتجاهاتى الفكرية ٠ لقد استفدت فائدة كبيرة من الحلقتين الأدبيتين : حلقة نجيب محفوظ وحلقة الشباب ، فقد كانت تطرح القضايا الأدبية المعاصرة فى اجتماع هاتين الحلقتين ، وكانت تناقش آراء وأساليب وأعمال بعض الكتاب المشهورين العالميين والعرب ٠ بل ان حلقة الشباب كانت تقوم بمناقشة انتاج أعضائها ، فكان أولئك الأصدقاء يتبادلون انتاجهم القصصى قبل نشره ، ويتقبلون النقد من بعضهم البعض الآخر ٠

وفى هذه الحلقة بالذات تعرفت على أنطون تشيكوف ٠٠ الكاتب الذى ترك أعمق الأثر فى نفسى ، وكنت قد قرأت له من قبل بطبيعة الحال بعض القصص المترجمة الى اللغة العربية ، الا أن تأكيد معظم أصدقاء الحلقة على أدبه جعلنى أنصرف الى قراءته باللغة الانجليزية ، فشغفت به حبا ، وكلما ازددت قراءة له ، ازددت شغفا به ، وصرت أعتقد أن أعظم نماذج قدمها الكتاب العالميون فى حقل القصة القصيرة هى تلك التى كتبها أنطون تشيكوف ، ومازلت أعتقد أنه أعظم كاتب قصصى ظهر الى الوجود ٠ ولعل تأثرى بأسلوبه ينعكس فى مجموعتى « حياة قاسية » ٠ ولعل شغفى به لا يعود الى طبيعة أدبه فحسب ، بل الى سمات مشتركة فى نظرتنا الى الانسان ٠ فأنا أشاركه فى عطفه على الانسان ورثائه له ٠ وانى من المعتقدين أن « الانسان » يعانى فى معظم المجتمعات البشرية من « القسوة والتعسف والأذى » بصورة من الصور ، اما بسبب النظام السياسى أو بسبب النظام الاجتماعى الذى يعيش فى ظله ، أو بسبب عواطفه الغريزية ٠ وكثيرا ما يجد نفسه فى موقف المحاصر Trapped بحيث لا يستطيع التخلص أو الانفكاك من هذا الموقف ٠ فهو فى جميع أحواله ، حتى وهو يرتكب الأخطاء والحماقات ، أجدر بالرثاء والشفقة منه بالغضب والانتقام ٠

ـ هل يمكن أن نعتبر أن هذه المقولة تمثل موقفك أو وجهة نظرك من الحياة ؟ •

●● هذا هو ، على التحديد ، موقفى من الانسان ، ورأيى فى وضعه • وأعتقد أن تشيكوف كان ينظر الى الانسان نفس النظرة • فهو حتى حينما يصور لنا مواقف « الحمقى » ، تحس أنه لا يفعل ذلك سخرية منهم ، بل شفقة عليهم •

ان نظرتى هذه الى « الانسان » جعلتنى لا أؤمن بالعنف بأى شكل من الأشكال ، لأننى غير قادر عليه • ولعل ذلك هو السبب الذى أبعدنى عن الانتماء الى أحزاب تقدمية ، أتفق معها فى أهدافها البعيدة • ولعلك لاحظت انعكاس هذه الآراء فى مسرحيتى « الشىء » التى تمثل الى حد ما تجربة شخصية حدثت لى فى ظرف سياسى مأساوى ، ورواية « الحقد الأسود » التى تعبر عن ظرف مشابه ، والتى تعكس فيها آرائى فى هذه النقطة بالذات بصورة أوضح • غير أن الرواية ممنوعة ، وقد طبعت فى لبنان ضمن منشورات المكتبة العصرية فى بيروت •

بعد هذا المدخل نتعرف على رحلة شاكر خصباك فى عالم القراءة ، فى تراثنا القومى والتراث العالمى •

●● لا أدرى ان كنت تقصد بالتراث القومى القديم منه أم الحديث أيضا • فأما اذا كنت تقصد القديم فاننى لا يمكن أن أدعى التعمق فيه • فأنت اذن تعلم أن التراث القومى القديم تراث شعرى بالدرجة الأولى • ويؤسفنى أن أقول اننى نتيجة لتجربة شخصية منذ الصغر عافت نفسى الشعر ، ولقد كنت فى صغرى أحب الشعر وأقرأه كثيرا • بل وكنت أحاول نظمه أيضا • وكان لى عم شاعر (أو على الأصح شويعر) ، فكنت أعرض عليه شعرى وأنا ما أزال طالبا فى نهاية المرحلة الابتدائية ، وكان يستحسن بعض الأبيات أحيانا ، ولكن ما أن أقرأ له بيتا ضعيفا حتى يسألنى من قائل هذا الشعر ، فأرد عليه أنا ، حتى يسخر منى ، ويطلب منى ترك نظم الشعر ، وعدم الاستعجال ، والانصراف الى دروسى • وقد انصرفت بالفعل ، ولم تعد بى رغبة حقيقية فى قراءة الشعر •

غير أننى ، على كل حال ، قرأت بصورة واسعة المتنبى وأحببته ، وأبا العلاء • وأبا نواس ، وشغفت بشعر الجاهليين ، ولا سيما طرفة بن العبد وامرؤ القيس ، وزهير بن أبى سلمى • وأعجبت بالجاحظ وقرأت معظم كتبه ، كما قرأت « المقامات » و « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » •

أما ما يتعلق بالأدب العربى الحديث فقد أحببت محمود تيمور حبا جما ، وبالرغم من أننى لم أعد أتفق معه فى النظرة الى القصة منذ أوائل الخمسينات •

كذلك أعجبت بتوفيق الحكيم اعجابا كبيرا ، وبطه حسين (ليس

بقصصه عدا الأيام) وبابراهيم المازنى ٠ أما العقاد فلم يعجبنى مطلقا لا فى شعره ولا فى نثره ٠

ومن كتاب الجيل اللاحق أعجبنى نجيب محفوظ اعجابا كبيرا ٠ وأنا أعتقد أن نجيب محفوظ هو من أصدق الكتاب العرب فى أدبه وفى خدمته للمجتمع عن طريق الأدب ٠ ان معرفتى بنجيب محفوظ وقراءتى لأدبه تجعلنى أعتقد أنه سيظل دائما صفحة مشرقة فى الأدب العربى والانسانى ٠ وهو يحتل فى نفسى مكانة عالية تلى مكانة تيمور ٠ وعلى أية حال فأنا أعتقد أنه أفضل روائيينا ٠

أما فى القصة القصيرة فأنى أعتقد أن يوسف ادريس قصاص لا يبارى ، وهو أفضل من كتب القصة فى العالم العربى (ولا أقصد القصة الطويلة أو المسرحية فهو ، فى رأيى ، مسرحى فاشل) ٠ انه فى اعتقادى تشيكوف مصر ٠ وهناك أسماء عديدة أقرأ لها باعجاب ولا يمكننى تعدادها جميعا مثل فتحى غانم ، أحمد عباس صالح ، نعمان عاشور ، يوسف الشارونى (الذى كان يمكن أن يكون قصاصا عظيما لولا الظروف التى مر بها فعاقت مسيرته القصصية) ٠ وكان هناك محمد عفيفى الذى ترك القصة من أمد بعيد مع الأسف ، وكذلك عادل كامل ٠٠ الخ ٠

أما عن قراءتى فى التراث العالمى فانى معجب جدا بالأدب الروسى الكلاسيكى ٠ وأعتقد أن العمالقة الخمسة : تولستوى ، تورجنيف دوستويفسكى ، تشيكوف ، جوركى ، هم من أعظم من أنجبتهم البشرية من الأدباء ، كما أعتقد بأن دستويفسكى هو أعظم روائى ظهر الى الوجود ٠ وقد قرأت جميع آثارهم ٠

الحقيقة أن قراءاتى فى الأدب الغربى واسعة للغاية ، ولا أستطيع أن أذكرها جميعا ، فقد قرأت أمهات الكتب الأدبية العالمية ، وأعجبنى على نحو الخصوص شكسبير ولورانس وبريستلى وشو وموم (فى بعض قصصه) وديكنز وغيرهم ٠

وأعجبنى من الأدباء الأمريكيين هيمنجواى وشتاينبك وجيمس فاريل وكالدويل وبيرل بك وأوهنرى وغيرهم ٠

وعجبنى من الفرنسيين ستانداك وبلزاك وفلوبير وموباسان (فى بعض قصصه) وأندريه جيد ومورياك وسارتر وغيرهم ٠ وأعجبنى من الألمان كافكا وزفايج وتوماس مان ٠ وهناك عدد كبير آخر من الأدباء العالميين الذين أعجبت بهم ولا تحضرنى أسماؤهم فى الوقت الحاضر ٠

ـ أين تقف بين الأشكال الأدبية الثلاثة : القصة والرواية والمسرحية ؟

●● لقد أوضحت بأن القصة القصيرة هى التى استهوتنى واستأثرت باهتمامى منذ صغرى ، بالرغم من أننى كنت منذ البداية أيضا أقرأ الرواية والمسرحية ٠ ولعلى قرأت فى الرواية أكثر مما قرأت فى القصة ٠ غير أننى مأزال حتى الآن أفضل كتابة القصة على كتابة الرواية ٠ ولعل مرجع ذلك الى أننى بطبعى لا أميل الى التفصيلات ٠ وأعتقد أن

كتابة الرواية تحتاج الى مزاج خاص · ويخيل الى أن « القصة » الممتازة قد ترقى فى أهميتها الى ما يعادل رواية ·

أما المسرحية فاننى أحبها كثيرا وان لم تعدل محبتها فى قلبى محبة القصة · كتبت ثلاث مسرحيات وبودى لو أكتب مسرحيات أخرى ، غير أن المشكلة التى تواجهنى هى لغة المسرحية · فأنا أستطيع الكتابة باللغة العامية ، غير أننى مقتنع فى الوقت نفسه بأن المواضيع العصرية لا يمكن أن تمثل بلغة فصيحة · ولذلك فان حوارى هو أقرب نموذج فصيح ممكن للعامية · وأكاد أعتبر مسرحياتى أصلح للقراءة منها للتمثيل ·

– تعرضت الأشكال الأدبية المختلفة فى الغرب ، فى السنين الأخيرة ، لثورة عاتية فى الشكل ·· فكيف ترى آفاق الحداثة ؟

●● التجديد عنصر مهم جدا فى جميع حقول المعرفة غير أن التجديد ينبغى أن ينبنى على أسس صحيحة ، والا كان أقرب الى التخريب منه الى التجديد ·

ويبدو أن الكثيرين من أدباء الشباب فى عالمنا العربى قد استواهم التجديد بدرجة جعلت القارىء المثقف – ناهيك عن العادى – يقف حائرا أمام أدبهم ، لا يفهم ماذا يريدون أن يقولوا · واننى لأتساءل أحيانا اذا كان الكاتب يفهم حقا ما يقول · وفيما عدا حالات قليلة تبرز فيها الأصالة لدى نفر من الكتاب ، فان الغالبية على ما أعتقد مقلدون لتيارات أدبية غربية لم يتوافر لهم فهمها على حقيقتها · ولم افترضنا أن بعض الأدباء الغربيين الجدد كتبوا بهذا الأسلوب أو ذاك ، فهل يتوجب علينا تقليدهم ؟! ثم هذا الاغراق فى الغموض ، ماذا يخدم ؟ اننى أعتقد أن أولئك الأدباء الذين يكتبون أدبا معقدا غامضا لا يمكن أن يلقوا تجاوبا حقيقيا من القراء · ولقد أصبح « الشكل » لدى أمثال هؤلاء الكتاب المجددين هو الغاية ، ولم يعد « للمضمون » أية أهمية · وأنا أجد نفسى مخالفا كل المخالفة لمثل هذا الاتجاه · فمن أهم واجبات الكاتب أن ينقل أفكاره الى القارىء ، والا فما الداعى الى نشر نتاجه على الملأ ؟!

– يعد عزوفك عن الأدب والحياة الأدبية ظاهرة لها نظائر فى كل جيل · ما هى الأسباب التى تكمن وراء هذا العزوف ؟

●● لعزوفى عن الأدب فى المرحلة الحالية من حياتى أسباب عديدة · الأول يرجع الى طبيعة نظرتى الى الأدب · فأنا ، كما قلت ، لا أنظر الى الأدب كتسلية أو تعبير عن هواية فحسب ، بل كمساهمة فى تطوير المجتمع الانسانى · اننى أعتبر الأدب وسيلة للدفاع عن «الانسان» · ولذلك فلابد لى أن « أنفعل » لكى أكتب · أما الكتابة لمجرد الكتابة فلم أتعود عليها · وكان هذا « الانفعال » يسيطر على حتى عام ١٩٥٨ يوم حدثت ثورة ١٤ تموز ، ودكت النظام الملكى الاقطاعى ، ولذلك فقد كان آخر عمل لى هو مجموعة « حياة قاسية » التى نشرت فى أوائل ١٩٥٩ ، وقد كتبت جميع قصصها قبل ذلك التاريخ ·

وبما أن ثورة ١٩٥٨ كانت تعد بتحقيق جميع طموحاتي وطموحات أمثالى من الكتاب تجاه الشعب ، فقد وجدت نفسى فى حالة من التوقف ، ولم أعد مستعدا نفسيا للكتابة ٠ ودامت هذه الحالة بضع سنوات ٠ ثم أخذ الحكم يتطور فى خط يتناقض والآمال التى بنيناها عليه ، وأخذت تتلبور ديكتاتورية واضحة ٠ فكان أن وجدت فى نفسي الرغبة للكتابة ثانية ٠ وقد أصدرت فى عام ١٩٦٢ مسرحية « بيت الزوجية » التي وجدت صعوبة في تخليصها من الرقابة ، واضطررت الى حذف بعض العبارات ، والى اضافة بعض الهوامش ٠

كذلك أوحت الى أحداث ١٩٦٣ المؤسفة بثلاثة أعمال قصصية ٠ ولما عدت الى العراق بعد غيبة خمسة أعوام كان ثمة تبدلات كثيرة فى الحياة العامة ٠ وكان ثمة وضع خاص ٠ وباختصار فقد وجدت نفسى عازفا عن الكتابة الأدبية ٠

ثانيا : ومما شجع على هذا العزوف أننى وجدت الجو الأدبى قد تطور تطورا جديدا ، وظهرت أسماء جديدة فى حقل القصة ، وكان هم الأسماء الجديدة التى سيطرت على وسائل النشر الغاء أية أهمية لكتاب الجيل السابق الذين أطلق عليهم اسم « كتاب مرحلة الخمسينات » ٠ وكان الحديث يدور عنهم وكأنهم أصبحوا من مخلفات الماضى ٠ بل كثيرا ما تجوهلت أسماؤهم بكل وسيلة ممكنة ، فكأنهم لم يلعبوا دورا على مسرح الأدب ٠ وقد زاد ذلك من نفورى من الأدب ومن الجو الأدبى ، وتملكتنى حالة من القرف ، لا سيما أننى اعتقدت بأن معظم الأسماء الجديدة لا تقدم عطاء حقيقيا للأدب العراقى أو العربى ٠

ثالثا : لقد جعلنى السبب الأول والثانى أتجه بكليتى الى البحث العلمى ، وصدرت لى بالفعل فيما بين عام ١٩٦٩ و ١٩٧٥ أربع دراسات عن الجغرافيا العربية ٠ الا أننى ظللت أمارس هوايتى فى قراءة الأدب وتتبعه ، ولم أنقطع عن ذلك ٠

– أود ، فى نهاية هذا اللقاء ، أن أعرف الصلة القائمة بين الجغرافيا والأدب ؟

●● قد يبدو قولى غريبا ، ولكن هناك صلة قوية جدا بين الجغرافيا والأدب ٠ فميدان الجغرافيا هو دراسة تحرك الانسان ضمن اطار بيئته الطبيعية ٠ وهذا التحرك ينعكس فى أنماط حياته الاجتماعية والاقتصادية ٠ وهكذا فان الجغرافيا وثيقة الصلة بالانسان ٠ وبطبيعة الحال فان محور الكتابة الأدبية هو الانسان ٠ وهكذا فان « الانسان » بهذا الاعتبار قاسم مشترك بين الجغرافيا والأدب ٠ وهناك حقل من حقول الجغرافيا يسمى « الجغرافيا البشرية » أو « الجغرافيا الاجتماعية » ، وهو لصيق الصلة بدراسة المجتمعات البشرية ولذلك فمن غير المستغرب أن تجد بعض الجغرافيين العرب المرموقين أدباء مرموقين فى نفس الوقت ٠ ولعل أفضل مثل لذلك الدكتور محمد عوض محمد ٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٩/١٩٧٦